لماذا غزت اسرائيل لبنان ؟

بقلم : هرتسل شوبرت

قبل عامين تقريبا ، كتب السيد أمين هويدى أحد كبار مساعد الرئيس عبد الناصر ومدير المخابرات المصرية بعد هزيمة حزيران ، أن «اسرائيل» تخطط للقيام بمذبحة في الضفة الغربية وقطاع غزة من اجل ارهاب الفلسطينيين ودفعهم الى الرحيل . وقد حدد منتصف الثمانينات كتاريخ محتمل للمذبحة (امين هويدى ، أحاديث في السياسة والأمن ، معهد الأمناء العربي - بيروت) .

وفي نفس الفترة أشار السيد أمين الحافظ رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب اللبناني في حديث لاحدى الأسبوعيات اللبنانية (النهار العربي والدولي) الى أن اسرائيل تخطط لمذبحة .

في المقال التالي الذي صدر في أيلول الماضي اشارات وتأكيدات واضحة حول نوايا اسرائيل لدفع الفلسطينيين خارج أرضهم . أما الكاتب فهو اسرائيلي متخصص في تاريخ الصهيونية خلال فترة الأنتداب البريطانيا ، وله نشاطات تضامنية مع طلاب بير زيت وضد الغزو الاسرائيلي للبنان . وفي المقال مجموعة من النماذج للتفكير بكيفية تنفيذ طرد الفلسطينيين ، وبصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع نقطة هنا أو هناك ، المهم أن الموضوع يستحق التفهم العميق .

قبل ٣ اشهر من غزو اسرائيل للبنان تحدث البروفسور مناحيم ميلسون رئيس الادارة المدنية في المناطق المحتلة عبر شاشة التلفزيون الاسرائيلي معلنا ان الحرب الحالية هي أهم حرب خاضتها اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ . وكان يشير بذلك الى التصعيد الخطير للأعمال العدائية في المناطق المحتلة ، التي تم خلالها قتل وجرح العشرات من المتظاهرين الفلسطينيين على يد قوات الجيش أو على يد المستوطنين المسلحين (في نيسان ١٩٨٢ فقط قتل ١٧ فلسطينيا وجرح ١٩٦) .

نفس الحرب التي شنتها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني . وبتقدير ، ان ما نراه الآن في لبنان ليس سوى شيء بسيط اذا ما قورن بالأشياء الأخرى القادمة .

١ - يعيش الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة ، والدروز السوريون في هضبة الجولان منذ ١٥ عاما في ظل حكومات المعراخ والليكود المتعاقبة خارج القانون وتحت الحكم العسكري ، وهذا هو المظهر المركزي الذي يحدد طبيعة الاحتلال الاسرائيلي . لا توجد في المناطق المحتلة مطلقاً أي تشريعات قانونية تكفل الحريات المدنية وحقوق الانسان ، هذا اذا أغفلنا الحديث عن الحقوق القومية لغير اليهود . وأكرر القول ، لا توجد تشريعات مطلقاً : يمكن في أي لحظة ان تتعرض أملاك الناس للمصادرة ، يمكن أن يُطردوا ، أو أن يخضعوا للتوقيف الاداري لسنوات عديدة بدون محاكمة وبلا تهم قانونية توجه لهم ، ويمكن أن تتعرض بيوتهم للتفتيش أو للهدم ، تخضع الصحف للرقابة ، تحظر الكتب ، وتطلق النار على المتظاهرين عندما يعربون عن احتجاجهم .

قائمة طويلة من قوانين الطوارىء ورثتها اسرائيل عن بريطانيا عام ١٩٤٨ عندما اصبحت دولة ، وتشكل تلك القوانين أرضية تشريعية لكل ما سبق ذكره من الأعمال الاسرائيلية في المناطق المحتلة . وتجدر الملاحظة أن بريطانيا عندما طبقت هذه القوانين على اليهود (كما طبقتها على الفلسطينيين) في الأربعينات ، أدان اليهود بريطانيا لأنها تحرمهم من حقوقهم الأنسانية الأساسية ، وتضعهم في ظل نظام قمعي .

٢ - لم تقم اسرائيل بغزو لبنان بسبب خطر م . ت . ف العسكري على أمن اسرائيل في الشمال . لم تشكل م . ت . ف أبداً لا في الماضي ولا في الحاضر خطراً عسكرياً على وجود اسرائيل . ان اسرائيل بفضل المساعدات العسكرية والمالية الضخمة التي تتلقاها من الولايات المتحدة هي القوة العسكرية الأولى في المنطقة بلا منافس . واذا كان صحيحا ان الحشد العسكري لـ م . ت . ف في لبنان شكل تهديداً لأمن اسرائيل ، فان القوة العسكرية النارية لاسرائيل تشكل تهديداً لكل الشرق الأوسط . واذا كان صحيحا ان محاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في لندن تسوغ الغزو الاسرائيلي للبنان ، فإننا وفق المنطق نفسه نعتبر ان اغتيال اللورد موين الوسيط البريطاني عام ١٩٤٤ على يد منظمة «ليمي» السرية التي كان وزير الخارجية الاسرائيلية الحالي اسحق شامير أحد قادتها يسوغ عملاً ثارياً تقوم به بريطانيا ضد اسرائيل ، من نوع قصف تل أبيب وحصارها .

الهدف الوحيد والرئيسي لغزو لبنان هو : إلحاق ضربة مميتة بالحركة الوطنية الفلسطينية ، ضرب كل بنيتها التنظيمية ، وعندما يقول الجنرال رفائيل ايتان رئيس الأركان والشخص الثالث اضافة الى بيغن وشارون في تخطيط وتنفيذ هذه الحرب ، أن الحرب في بيروت ليست سوى النضال من أجل أرض اسرائيل فأنه يبدو محقاً في قوله : «وجودنا في لبنان يخدم النضال من أجل أرض اسرائيل ، انها حرب ضد العدو الأساسي الذي يقاتلنا على أرض اسرائيل منذ مائة عام» .

تأمل اسرائيل من وراء غزوها للبنان أن تحطم أقدام أي معارضة فلسطينية منظمة لسياستها في المناطق المحتلة ، ومن زاوية السياسة التي اتبعتها كافة الادارات الاسرائيلية تجاه الفلسطينيين ، فإن الغزو كان منطقيا ومبيتاً ومخططاً بدقة ، ومن المؤكد أنه لم يكن مجرد رد فعل عفوي سواء على محاولة الاغتيال أو على قصف المستوطنات الاسرائيلية في الشمال . وقد صرّح شارون في مقابلة مع صحيفة «يديعوت احرونوت» في حزيران أنه خطط لهذه الحرب منذ توليه منصب وزير الدفاع ، كما نقلت الصحافة عن مقربين لشارون أنه بدأ يحلم بهذه العملية مباشرة بعد «عملية الليطاني» عام ١٩٧٨ .

في المناطق المحتلة وعلى امتداد عدة أشهر سبقت الحرب ، قامت اسرائيل عبر سلسلة من الأعمال القمعية بإقالة رؤساء البلديات المنتخبين في مدن مثل البيرة ونابلس ورام الله وجنين وغزة وقلقيليا (تمت إقالة رئيس بلديتي غزة وقلقيليا خلال فترة الغزو) كما تم حل هيئة التوجيه الوطني التي تمثل كافة فصائل م . ت . ف في المناطق المحتلة . وقد أشار المؤرخ الاسرائيلي المعروف يهوشواع بوراث بصواب في مقال نشر مؤخراً الى أن الغزو الاسرائيلي للبنان جاء لأن م . ت . ف حافظت بنجاح على وقف اطلاق النار الذي ابرم في تموز ١٩٨١ ، ولمدة تزيد على العام لم يكن هناك قصف عبر الحدود . وأثبت ياسر عرفات أن بمقدوره السيطرة على كافة الفصائل في إطار م . ت . ف .

كان لهذا التطور في الأحداث أثراً سياسياً بالغاً وخطيراً على الادارة الاسرائيلية الحالية . اذ كان بمقدور ياسر عرفات أن يتحدث باسم كل م . ت . ف ، واذا كان بمقدوره الحفاظ على اتفاقية من هذا النوع ، فأن هذا من شأنه اضعاف دعاوى اسرائيل بأن م . ت . ف ليست سوى مجموعة من الارهابيين القساة الذين لا يمكن اتخاذهم كشركاء شرعيين في المفاوضات .

لقد أسهم وقف إطلاق النار في تعزيز صورة م . ت . ف كهيئة سياسية مسؤولة ، مما كان له أفدح المخاطر على الحكومة الاسرائيلية . ان دينامية تطور من هذا النوع يمكن أن تؤدي ، عالمياً ، الى ضغط في المستقبل للتفاوض بين اسرائيل وم . ت . ف على مستقبل المناطق المحتلة .

في السنوات الثمان الماضية حققت م . ت . ف بعض النجاح الدبلوماسي الباهر ، وكان الجهد الأساسي لاسرائيل يتركز خلال نفس الفترة على تصوير م . ت . ف كمنظمة ارهابية تقف خلف مؤامرة ارهابية عالمية . م . ت . ف هي الشيطان على الأرض ، اعضاء م . ت . ف نازيون . وفي مناسبات عديدة تم تصوير عرفات وتحديداً من جهة بيغن كهتلر جديد .

وقد استخدم القادة الاسرائيليون التداعيات التي يثيرها مقتل ٦ ملايين يهودي على يد النظام النازي البربري كأداة في يدهم لاستمرار السيطرة على المناطق المحتلة .

اذا كان عرفات هو هتلر ، وأعضاء م . ت . ف نازيون ، أو «حيوانات بساتين» مثلما صرّح مؤخراً مناحيم بيغن ، لذا فان أي شيء يفعل ضدهم يبدو مشروعاً ومن الطبيعي أن يكون

التفاوض معهم بلا جدوى .

صرح الناطقون الرسميون في عديد من المناسبات ، أن غزو لبنان ، وكذلك التصعيد الأخير في المناطق المحتلة موجهان ضد م . ت . ف وحدها ، وليسا ضد الفلسطينيين بشكل عام . لكن الواقع يشير الى أن السياسة القمعية الاسرائيلية جعلت من م . ت . ف والشعب الفلسطيني شيئان لا ينفصلان .

في استفتائين أجريا مؤخراً في المناطق المحتلة ، اعتبر أكثر من ٨٥ بالمائة من الذين شملهم الاستفتاء أن م . ت . ف هي ممثلهم . إن التأييد الواسع الذي تحظى به م . ت . ف في المناطق المحتلة لا يعني ، بتقديري ، القبول أو التطابق مع البرنامج السياسي لـ م . ت . ف ، لكنه تطابق مع م . ت ف كرمز ، رمز مقاومة الفلسطينيين للسياسة الاسرائيلية التي تستهدف تهويد أرضهم ، في ظل وضع يمنع مطلقاً أي شكل من المعارضة الشرعية مثل الأحزاب السياسية والنقابات . وعندما تهدد المصادرات التعسفية الوجود الاقتصادي للفلسطينيين ، عندما لا يسمح بوجود أي شكل من أشكال التعبير الوطني الفلسطيني ، أليس من المنطقي أن تتطابق أغلبية الفلسطينيين مع م . ت . ف وتؤيدها .

الفلسطينيون كافة أعضاء محتملون في م . ت . ف ، هكذا تتعامل اسرائيل مع هذا الأمر ، ولا شيء يقدم مثالاً على ذلك أفضل من دخول القوات الاسرائيلية للمخيمات الفلسطينية الستة في جنوب لبنان . تم تجميع كافة الرجال القادرين بين سن ١٤ - ٦٠ (أو بين سن ١٤ - ٩٠ كما جاء في تقارير الصحافة) للاستجواب والتحقق من الهوية . وقد وصف أحد الضباط الاسرائيليين الذين شاركوا في الحرب في لبنان أحد هذه المشاهد بقوله : «تأخذ السكان ، تخرجهم من بيوتهم ، وتضعهم في معسكرات ، كل فلسطيني مشكوك فيه كمخرب ، وحسب تعريفنا هذا سحيح» .

اذا فهمنا طبيعة الأعمال الاسرائيلية في مخيمات اللاجئين في لبنان ، وسياسة اسرائيل في المناطق المحتلة ، كيف نصدق التصريحات العسكرية والحكومية الرسمية التي تقول بأن اسرائيل شن حربها على م . ت . ف فقط .

من زاوية السياسة الاسرائيلية الحالية تجاه الفلسطينيين ، لبنان ليس سوى مرحلة واحدة فقط في الحرب الشاملة التي تشنها ليس على م . ت . ف ولكن على كل الشعب الفلسطيني . إضافة الى أنني أعتقد أن هذه الحرب لم تصل ذروتها بعد .

نماذج وشهادات :

● عندما يكرر وزير الدفاع الاسرائيلي شارون قوله أن على الفلسطينيين ألا ينسوا عام ١٩٤٨ ، فإن اشارته واضحة جدا ، ان ما يتحدث عنه شارون هو امكانية الطرد الجماعي للفلسطينيين من المناطق المحتلة . وعندما يكرر رئيس الوزراء بيغن ووزير الخارجية شامير أن الأردن هي الدولة الفلسطينية فانهم لا يشككون وحسب ، وبطريقة رعناء بسيادة دولة عربية مستقلة ، لكنهم يثيرون عملياً الى المكان الذي سيجري طرد الفلسطينيين اليه في المستقبل .

● هذه التهديدات والتحذيرات التي تصدر عن قادة اسرائيليين يجب أن تؤخذ بجدية . لقد جرى طرد الفلسطينيين من قبل ، واليوم يوجد مناخ ملائم في اسرائيل لتكرار ذلك . في الأسبوع الثاني من غزو اسرائيل للبنان ، ذكر أحد المراسلين في «هآرتس» القراء بأصل اللاجئين الفلسطينيين في لبنان ، حتى عام ١٩٤٨ كانوا يعيشون في الجليل الشمالي ، في القرى العربية ، التي لم يعد لها وجود الآن .

● تحوّل قرابة ٧٥٠ ألف فلسطيني إلى لاجئين خلال ، ومباشرة ، بعد قيام دولة اسرائيل . وقد ذكر رئيس الوزراء الاسرائيلي الأسبق اسحق رابين في كتابه الذي صدر مؤخراً كيف تمت عملية طرد السكان الفلسطينيين من مدن اللد والرملة .

● في قصة باسم «خربة خزعة» نشرت عام ١٩٤٩ ، يتحدث الكاتب الاسرائيلي المعروف يزهار سميلانسكي عن قرية عربية خيالية وعن طرد سكانها . وفي عام ١٩٧٨ تصدر كتاب سميلانسكي أعمدة الصحف لأن التلفزيون الاسرائيلي أراد تحويل أحداث القصة إلى فيلم . وفي مقابلة مع أحد الصحف اليومية في مطلع ١٩٧٨ ، أعلن سميلانسكي أن قصته مبنية على أحداث وقعت في عديد من القرى العربية في جنوب فلسطين ، وقد شهد تلك الأحداث أثناء خدمته كضابط مخابرات في حرب عام ١٩٤٨ .

● من ينظر إلى خريطه فلسطين مباشرة قبل حرب ١٩٤٨ ، وبعد ذلك بعدة سنوات سيكتشف زوال ما يزيد على ٣٠٠ قرية عربية . كما أن النقاشات التي جرت في مجلس الوزراء الاسرائيلي خلال الحرب (١٩٤٨) وبعدها والمتعلقة بمشكلة اللاجئين الفلسطينيين ومصير ممتلكاتهم ورفض اسرائيل صراحة السماح لهؤلاء اللاجئين بالعودة ، كلها موثقة جيداً .

● إن عدداً كبيراً من السكان الفلسطينيين (حوالي ٤٥٠ ألفاً) الذين يعيشون في قطاع غزة هم من اللاجئين ، ويعيشون في المخيمات منذ عام ١٩٤٨ . مخيم جباليا ، على سبيل المثال ، وهو أكبر المخيمات نعيم ما بين ٤٠ - ٤٥ ألف نسمة .

خلال عام ٦٩ - ٧٠ قامت السلطات العسكرية بالتعاون مع هيئة معروفة بعملية تهدف إلى «تقليص» السكان الفلسطينيين الذين يقطنون مخيمات اللاجئين في قطاع غزة . وقد ذُكرت هذه العملية في الصحف الاسرائيلية . وحسب مصادر الصحافي الاسرائيلي يهودا ليطاني - موظفون عسكريون كبار - اعتبر المشروع برمته فاشلاً ، ويبدو أن مايين ١٠ - ٢٠ ألف فلسطيني قد رحلوا مقابل توقيع وثيقة بعدم العودة ، وحصلوا على تذكرة للسفر بالطائرة وعلى مبلغ غير معلوم من المال .

● زوبلون هامر أحد قادة الحزب الوطني الديني «المفدال» ، قال في مقابلة اجريت معه قبل عدة سنوات ، أن الحل الجزئي للمشكلة الديمغرافية التي نجمت عن الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة يمكن أن يكون على هيئة عرض اسرائيلي للسكان القاطنين في هاتين المنطقتين بالهجرة . واليوم هامر هو وزير التعليم في حكومة بيغن .

● البروفيسور يوفال نئمان فيزيائي اسرائيلي مشهور ورئيس سابق لجامعة تل أبيب وعضو في حزب هتحيا اليمين المتطرف واحد نوابه الثلاثة في الكنيست ، انضم في ٢٦ تموز الى حكومة بيغين كوزير للعلم والتنمية . رثى في مقابلة صحافية أجريت معه في العام الماضي الحقيقة المخيبة للآمال ، أن الجيش الاسرائيلي لم يستغل الفرصة المتاحة لتفريغ قطاع غزة من سكانه اثناء حرب يوم الغفران (حرب تشرين ٧٣) .

● مردخاي تسيبوري ، عضو في حزب حيروت ووزير النقل والمواصلات في الحكومة الحالية ، قال رداً على اضراب الدروز السوريين في هضبة الجولان احتجاجاً على ضم اسرائيل للهضبة ، إن كل اولئك الذين لا يرضيهم الضم يمكن أن يذهبوا إلى سوريا .

● أهارون باريف ، يشغل حالياً منصب مسؤول قسم الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب ، وهو أيضاً جنرال احتياط في الجيش الاسرائيلي ، والناطق العسكري باسم الجيش الاسرائيلي ، تحدث في حلقة دراسية عقدتها جامعة القدس قبل عامين ، فذكر نوايا موظفين اسرائيليين لم يسمهم لطرد ما بين ٧٠٠ - ٨٠٠ ألف فلسطيني من المناطق المحتلة في سياق حرب تقع في المستقبل .

في ضوء المسيرة الاسرائيلية «تشجيع» الفلسطينيين على الرحيل ، وفي ضوء التصريحات السابقة والحالية التي أدلى بها وزراء اسرائيليون فإن إمكانية طرد آلاف وربما أكثر في أول فرصة قادمة لا يبدو أمراً بعيد الاحتمال .

هذه الفرصة ربما تنشأ اذا ظهرت أولى بوادر عصيان مسلح في المناطق المحتلة . إن الإضرابات والمظاهرات ومشهد الشباب الذين يلقون الحجارة على الجنود وعلى المستوطنين شكلت حتى الآن أكثر أشكال المعارضة علانية للقمع الاسرائيلي في المناطق المحتلة . حتى الآن لم تلق سوى الحجارة . ومالم يحدث تغير عنيف في المواقف والسياسة الاسرائيلية تجاه الفلسطينيين فإن المسألة ، بتقديري ، هي مسألة وقت قبل أن يقوم بعض المتظاهرين باطلاق النار على الجنود الاسرائيليين وعلى المستوطنين .

إن السياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة تدفع الفلسطينيين إلى حمل السلاح والتمرد علانية ، واذا حدث ذلك ، وعندما يحدث ، ربما يكون الجواب في الواقع هو الطرف .

ترجمة : حسن خضر